الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين

بقلم كامل السوافيري

مكتبة نهضة مصر (القاهرة) ٦٦٠ ص

***

ما تزال فلسطين تهز الكتاب والباحثين والشعراء والمؤرخين في الوطن العربي جميعا فلا تمر فترة من الزمن حتى يبرز كتاب يناقش جانبا من جوانب هذه القضية الكبرى او يستعرض قطاعا من قطاعاتها . واقرب انتاج في هذا المجال العدد الخاص الذي اصدرته « الاداب » الزاهرة في اذار (مارس) الماضي ، وها نحن نلقي اليوم بكتاب ضخم اصدره كامل السوافيري يدرس فيه الشعر المصري الحديث في مأساة فلسطين منذ ١٩١٧ الى سنة ١٩٥٥ وفيها اشادة وحديث عن الاداب . والدكتور سهيل ادريس ...

وهو جهد ضخم مقدور بذل فيه مؤلفه العرق الكثير حتى سواه ناضجا اهلا للماجستر التي احرزها من معهد الدراسات العربية .

غير أنه كان لا بد ان يبرز من ابناء فلسطين من يشغف بمثل هذه الدراسة ويوليها وقته وجهده ويعيش لها فلا يدع شيئا يكتب عن فلسطين من شعر ونثر وقصة الا ويراجعه ويسجله ، فقد كانت فلسطين ولا تزال ، جرحا داميا في قلب الامة العربية لما يلتئم ولن يلتئم حتى تعود الى الامة العربية ، وما عاش قلب في الامة العربية نابضا دون ان يذكر فلسطين او يحلم بعودتها الى الوطن الام ، ولقد كانت مأساتها ذات اثر بعيد المدى ــ لم يكتب بعد ــ في مجال اليقظة والنهضة والقومية العربية والوحدة والامتزاج بين اجزاء المشرق والمغرب وكأنما كانت الامة العربية قد استنامت ثمة وتخدرت في ظل عناصر الضعف وفترات الجمود فلما ذهبت تستيقظ في اوائل القرن كانت يقظتها مشوبة بانحراف ناحية القوي الذي خدعها مرتين ، بانكاره عهده لها بقيام الدولة العربية وباعطاء وعد بلفور،هنالك بدأت تلك المأساة المهولة ومضت تعمق وتتسع حتى استوت في خلال ثلاثين عاما ، حدثا قوامه المؤامرات والاغتصاب والمكر ، ولم تلبث ان وقعت الحرب فانهزم فيها الغرب بالخديعة ايضا ، ومن خلال هذه المراحل المتصلة كان الشعراء يعيشون المعركة ويتأثرونها ، ففي اكثر من سبعين ديوانا من الشعر صدرت كانت فلسطين مذكورة على نحو من الانحاء ، بل قامت دواوين كاملة عنها ، وبرز شعراء لم يشغلوا الا بها .

ولقد مضى هذا الشعر في الاندية والصحف والدواوين ، يهز النفوس ، ويحول الاخبار والاحداث الى طابعه الوجداني المثير مرارة والما .

وبرز من ابناء فلسطين انفسهم من عاشوا هذه المأساة شعرا ، ومضى الشعر العربي يجتاز الافاق في المشرق والمغرب فما ترك قطرا من اقطار العروبة ، بل انه بلغ المهاجر الامريكية واثر في شعرها ، ولا نبالغ اذا قلنا انشعراء العرب في المهاجر كانوا اشد تأثرا واكثر ارتباطا بالاحداث ولم يقف الامر عند القصيدة بل مضى الشعر يفتح الطريق الى الاعمال الفنية الكبرى ، فظهر الشعر القصصي والشعر المسرحي..

وهكذا وجد كامل السوافيري الفلسطيني الاصل مجال دراسته خصبا واضحا ، فمضى يراجع النصوص ويقلبها ويستخلص منها ملاحظاته واراءه ، ليكشف عن اثر مأساة فلسطين في الشعر الحديث ، انه يقول :

« هزت مأساة فلسطين ضمير الامة العربية اعنف هزة عرفتها في تاريخها الحديث واشعلت عواطف شعرائها وفجرت في قلوبهم ينابيع الشعر ، ومنذ وقوعها في سنة ١٩٤٨ الى سنة ١٩٥٥ وهي النبع الفياض في الشعر الحديث ، ظهر اثرها واضحا في عشرات الدواوين الشعرية الكاملة التي استلهمت محتوياتها جوانب المأساة ومظاهرها المختلفة،وفي مئات القصائد الشعرية المستمدة من فواجعها واهوالها ومن واقع الغرب المؤلم ، وحاضرهم الذليل ،واملهم في المستقبل الباسم والغد المشرق المؤذن بالاستجابة لنداء الثأر ، وغسل العار ، واستعادة فلسطين .. ظهر اثرها في شعر ابنائها وفي شعر ابناء الاقطار العربية وفي شعر الشعراء العرب في المهاجر الامريكية . ظهر في الشعر القومي الوطني السياسي الذي اطلقنا عليه اسم الشعر الغنائي في مئات من القصائد والمقطوعات والموشحات والاغاني والاناشيد ، وفي الشعر القومي الوطني السياسي الاجتماعي القصصي والمسرحي ، ظهر اثرها في الشعر الحديث فيما اوجدت من موضوعات وما استحدثت من افكار، وما تطلبت للتعبير عن موضوعاتها وافكارها من الفاظ وجمل وعبارات ، وما ابدعت من صور ، وما ابتكرت من اخيلة وما اثرت به العاطفة . ظهر اثرها في الشعراء الذين اوجدتهم وفجرت في نفوسهم ينابيع الشعر ولولاها لما غنوا ولما ابدعوا ، بل لما عرفوا في دنيا الشعر ومن الشعراء الذين حولت اتجاهاتهم الشعرية الذاتية والرومانسية والغنائية والفنية الى الاتجاه القومي .

وخلقت المأساة من ابناء فلسطين وبناتها شعراء وشاعرات ، لم تعرفهم فلسطين من قبل فجرت فيهم ينابيع الشعر وامدتهم بالطاقات ، ومنهم معين بسيسو وخليل زقطان وهارون هاشم رشيد ويوسف الخطيب ورجا سمرين والشاعرة دعد الكيالي .

وحولت الاتجاهات الشعرية لعدد من شعراء فلسطين وشاعراتها المعروفين من قبل الى الاتجاه القومي ، ومن هؤلاء الشعراء : محمود الحوت الذي كان شاعرا وجدانيا ، وابو سلمى الذي كان شاعر الحسن والجمال ، ومحمود الافغاني الذي كان شاعرا غنائيا ، وفدوى طوقان التي كانت تهوم في افاق الخيال ، وتشكو الوحدة وتلوذ بالتأملية ، وتغلب الاتجاه القومي على سائر الاتجاهات في شعر عيسى الناعوري في الاردن ، وعدنان الراوي وخالد الشواف وابراهيم الوائلي وعلي

الحلي في العراق ، وعمر ابي ريشة وسليمان العيسى في سورية ، وعلي محمود طه ومحمود حسن اسماعيل في مصر .

كانت المأساة النبع الذي لا يجف والمعين الذي لا ينضب في الشعر الحديث ، وكانت نقطة الانطلاق التي انبعثت منها دعواته للثورة على حاضر العرب وواقعهم الاليم وجعلت من الشعر الحديث ، شعر العروبة والقومية والوطنية والسياسة ، شعر الثورة على الاستعمار وقاعدته اسرائيل ، وعلى فساد الاوضاع والنظم والدعوة لبناء المجتمع العربي من جديد على اسس جديدة .

ونقف هنا لحظة لنقرر ان اثر المأساة في الشعر الحديث اقوى من اثر المحنة فيه قبل وقوع المأساة ، اثر المأساة اعم واشمل لانه شمل جميع الاقطار العربية التي لم نجد منها قطرا واحدا لم يظهر اثر المأساة في شعر ابنائه بل قل ان تجد شاعرا عربيا لم يظهر اثر المأساة في شعره على حين ان شعر المحنة قبل المأساة لم يشمل جميع الاقطار ، ولم يظهر عند كثير من الشعراء .

وظهر اثر المأساة في الشعر الحديث في الفكر الحديث وتكوين الشخصية العربية والتعبير عن الذات العربية واعتناق فلسفة القوة ومخاطبة المستعمر بلغة المصلحة والكشف عن جوانب القوة الكامنة في الامة العربية وما تملكه من مقدرات وامكانيات تتيح لها اذا اتحدت وتضامنت ان تملي ارادتها على الذين اوجدوا اسرائيل وان تعيد الحق الى اهله .. » .

**

وهكذا يمضي كامل السوافيري في دراسته الخصبة الضخمة الغنية ، التي هي الاولى من نوعها في الواقع ، وقد عاش بها حفيا كلفا ، كانما قد جرد نفسه لها منذ عام ١٩٤٨ على وجه التحديد ، وكان قد بدا ينشر فصولا من دراسته في مجلة القلم الجديد (عمان) مارس ١٩٥٣ وظل يعمل لها حتى استوت دراسة على اسس علمية كاملة احرز بها ماجستير في الادب (١٨ اكتوبر ١٩٦٢) ولكنه لم يتوقف بعد فهو بعد دراسة جديدة لاحراز اجازة الدكتوراه « الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر » فكانما قد وهب حياته الفكرية لهذه القضية البعيدة الاثر في الكيان العربي كله .

وربما اعانه على هذا الجهد انه كان منوع الدراسة موفور جوانبها الخصبة ، فقد تعلم في الازهر ، ودار العلوم ، ومعهد التربية ، فاحرز فنونا مختلفة من العلم القديم والحديث ، وامتزجت في نفسه مناهج الدراسات العربية الاسلامية الخصبة العميقة ، مع مناهج الدراسات الحديثة في دقتها وفنها .

ومنذ مشرق الشباب وقد تطلع السوافيري الى مجال الصحافة والكتابة فكتب في صحف فلسطين : الجامعة العربية وفلسطين والدفاع في الادب والاجماع فلما جاء مصر لم يلبث ان والى كتاباته في الاهرام والبلاغ والرسالة وعديد من صحف العالم العربي .. وبرز نشاطه الفكري عام ١٩٤٩ « عام معركة فلسطين » وهي نقطة الانطلاق في تفكيره كله ، عندما رأى ابناء وطنه وقد عادوا دون وطن ، مشردين هائمين على وجوههم من الارض . هنالك استل قلمه ووجهه الى عمل ضخم في سبيل امته فكتب عشرات المقالات في الرسالة عن استرداد فلسطين ووعد بلفور وعبد القادر الحسيني واللاجئين ، ومضى يتابع النتاج العربي عن فلسطين وقضايا الحرية متناولا اياه بالنقد والدراسة . وعرف بشعراء فلسطين وكتابها وابرز خصائص الادب العربي الفلسطيني في فنونه المختلفة وامدته مأساة فلسطين بالوحي :

« كان في سوافير من اعمال غزة في يوم ما اهلي وعشيرتي ، ولكنهم تفرقوا ايدي سبا ، كانت الغربة قاصمة فتناثرنا كالشرر في كل اتجاه لا لنخبو ونضيع بل لنحمل روح المأساة العربية دامية امام كل عين .

بالامس كانت ارضنا تزرع للنفوس السلام ، واليوم تندس في كل شبر منها الغام والغام ، بالامس كان التشرد يحمله الافراد ، ومنذ ان خرجنا من ارضنا وللتشرد علم يرتفع بين الاعلام .

كنا هناك وراء غزة منذ الاف السنين ، نرقب الشمس وهي تجفف محصولنا وتجدد ثمارنا ، واليوم لا نرقب ولا شمس ولا ثمار لان بعضنا قد امتصته قصة تشرده هو ولم تخلق فيه ما يطرحه هناك وراء غزة ، والبعض الاخر قد احاطه نجاحه بسياج من الترف يرد كل خواطره اليه.

وانا ، اين اضع نفسي من هؤلاء ، كنت افكر طيلة خمسة عشر عاما الى ان زرت غزة سنة ١٩٥٤ وجاوز القطار العريش الى رفح ، وامتلات خياشيمي بنفحات ارضي ، وصافحت آذاني لهجات قومي ..

الاطفال اصبحوا كبارا ، الشعر الفاحم امسى رمادا ، رأيت قسمات فلسطين بعد خمسة عشر عاما ، رأيت اخاديد الاسى وحفر الالم تصرخ في كل وجه ، ورأيت من خلال حبة من الدمع ايامي فوق هذه الارض .

كان عملي التجول ، تجول للتجمع والتكتل ، ادور بين ١٥٠ بلدا وكان مقرى الرملة . كنت واعظا آمر بالمعروف وانهي عن المنكر ، امضي كالبستاني اهذب واشذب ، الى ان قامت الثورة سنة ١٩٣٦ فتغير كل شيء ..

ثم تعقبت الحكومة الانجليزية الوعاظ ، فلم ار لي وجهة اتجه اليها سوى مصر ، مصر التي جئتها في الثانية عشرة طالب علم حيث ضمني رواق الشوام بالازهر ، لست بالغريب عنها فهي وطني صغيرا وكبيرا ..

وعولت ان اشق لي طريقا بين هذا الشظف الذي يطمسنا ويطمس فلسطين ، فتقدمت الى دار العلوم ، وفي غرفة خشبية فوق سطح بيت في قلب زقاق اعمى من ازقة السيدة زينب وضعت حياتي الخاصة ، كان البرد المتجهم يشاركني غرفتي شتاء والحر المتهالك يسكن معي صيفا حتى تخرجت من معهد التربية وعينت مدرسا ..

وبدأت اجني ثمارا للضريبة الفادحة التي ظللت ادفعها ، ولكن هل من حقي ان استجيب لهذا الرغد ، وهناك وراء غزة وحولها وفي الاردن ، عيون كفتحات المغاور تتحرك في بلاهة فوق افواه نسيت الوان الطعوم ... »

**

واصبح الواعظ الفلسطيني دكتورا في الاداب .. انها صفحة كفاح ونضال مرير ، طوال حياة خصبة جاهدت من مطالع الشباب عندما انبثقت من ارض فلسطين سنة ١٩١٧ بين غزة ويافا .. حيث مضى يدرس في السوافير فالازهر ، فاذا به يعود سنة ١٩٣٣ واعظا فمدرسا ، مجاهدا في سبيل قضية الوطن العربي كله ، مشتركا في الثورة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٣٦ التي هزت الدنيا ثم عائدا الى القاهرة سنة ١٩٣٩ ليبدأ كفاحا جديدا في مجال العلم والثقافة والفكر ..

وهكذا يرتبط اسم كامل السوافيري في مجال الفكر العربي المعاصر بالادب الفلسطيني فهو هذا المعني به ، الحريص على متابعة كل ما يكتب عنها ، مراجعا باحثا دارسا ، ومن هنا كانت اراؤه وافكاره في مجال الثقافة ايجابية بناءة بعيدة عن الجمود والانحراف ، فهو واحد من ابناء المدرسة الوسطى التي تؤمن بالبناء على الاساس .. يحارب ادب الابراج والانطواء ويدعو الى تذليل الادب للكفاح من اجل الحرية والوحدة . « جدير بالكتاب ان يقودوا امتهم الى ضفاف الحرية بعد ان تحطم اغلال الاستعباد بما ينفثونه من ادب واع يدفع للمجد ».

« نريد أن نقضي على ادب التدهور والانحلال الذي يحذر الشعب ويهدهد غرائزه ويصور له الحياة دعة وامنا لاشقاء فيها ولا كفاح .. »

وهو يرى الشعر تعبيرا صادقا عن خطرات النفس وخلجات القلب وهمسات الروح وتصويرا بارعا للانفعالات والعواطف والاحاسيس ، في اطار البيان المشرق ، واللفظ الموحي ... وعلى الشاعر الحر ان يعيش عصره،ويستلهم الاحداث التي تمر بوطنه وامته ، ويبعث فيها روح الكفاح والنضال لتنطلق الى طريق الحرية ... »

**

وبعد : فان كتاب الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين عمل ضخم كبير ، لولا انه قد فوت بعض الاحصائيات والمراجعات ، وربما كان مرجع ذلك الى ان الرسالة قد عاشت سنوات بعد اعدادها ، وقبل

طبعها ، مرجأة في ظل مشاغل الاساتذة والباحثين ، ولقد كنت اود لو ان اخي السوافيري قد احصى فعلا كل ما كتب عن فلسطين ولم ينس كل ما صدر عنها من مؤلفات وما كتبه الكتاب عنها من فصول وانتاج ... ولم يكتف ببعض الاسماء القريبة منه ، وجانب اخر وددت لو انـــه اهتم له واولاه رعايته ذلك هو جانب الشعر العربي في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب عن مأساة فلسطين خلال هذه الفترة وهو شعر كثير ، وجدير بالدراسة فعلا ، فهذا الجناح الايسر من الامة العربية قد تأثـــر قضية فلسطين وعاشها ونظم فيها ، في عديد من مناسباتها واحداثها ، وامامي شعر كثير في فلسطين لشعراء الجزائر والمغرب بالذات ، امثال سحنون ومحمد العيد وعلال الفاسي وعبد الله جنون وكثيرون اخرون.. ولقد كان هذا الشعر خليقا بأنه ينال عناية الباحث كما عنى بشعـر المهجر .. فلعله ان يضيف الى دراسته من بعد فصلا عن هذا الشعر المغربي العربي .... وما تزال فلسطين حية وما يزال الانتاج حولهـــا قويا متدفقا ..

القاهـــرة

انور الجندي

المساء الاخير

تأليف يوسف الشاروني

***

في الشهور الاخيرة من العام الماضي صدر هذا الكتاب ليوســف الشاروني وهو يختلف عـــن سابقيه « العشاق الخمسة » (١٩٥٦) و « رسالة الى امرأة » (١٩٦٠) اختلافا جوهريا . فالكتابان الاخـيران قد كتبا في فترة كان الكاتبقد بلغ فيها مرحلة النضج الفكري والفنـــي معا ـ واستقر الى القصة القصيرة اداة للتعبير . اما الكتاب الثـــالث ـ موضوع حديثنا في هذا المقال ـ فهو يضم كتابات يوسف الشاروني في فترة سابقة لمرحلة النضج كان ما يزال خلالها يتلمس طريقه فيالاداء، ويحاول أن يشتق لنفسه فلسفة معينة وموقفا من الازمات الازلية التي يكتنفها الغموض . وقد كتبت مادة هذا الكتاب في اوقات متفاوتة فـي اواخر الاربعينيات من هذا القرن ، ونشر اغلبها في اعداد مجلة الاديب فور كتابتها . وفي ذلك الوقت كان الكاتب حديث التخرج من قســم الفلسفة بجامعة القاهرة ، وكان ذهنه مشحونا ـ دون شك ـ بفلسفـة كيركجورد وغيره ممن قرأهم خلال دراسته بالجامعة ، كما انه كان قـد قرأ ايضا طاغور ، و ت. س. اليوت ، وتأثر بهما وبغيرهما تأثرا يبدو في بعض الاحيان واضحا كل الوضوح .

ويبدو شعار الكاتب جليا في التصدير القصير للكتاب ، حيث يشير الى ان بعث جبران خليل جبران في ترجمة الدكتور عكاشة آذن بأوبة « مسائي الاخير ، من غربته ، وعثوره على صحبته : وآن لاشلائه المبعثرة ـ كأشلاء اوزيريس ـ ان تجمع في كتيب فيبعث من جديد » . وللمجـــاز هنا اكثر من مغزى . فالكتاب ـ كما اوضح مؤلفه ـ ليس كلا متجانسا. فاجزاؤه تتفاوت بين الشعر المنثور ، والنثر المنتظم ، وبين السرد الذي يبلغ حد القصة ، الى الاقتضاب الذي يكاد يصبح كلمات مأثورة ،وهناك ايضا طريقة المذكرات اليومية التي اتبعها الكاتب في اخر الكتاب . غير ان هناك رابطة هامة تربط بين هذه « الاشلاء المبعثرة » ، اذ للكتـــاب محور واحد تدور حوله مادته ، هو الشاعر نفسه شبيه اوزيريس الاله المعذب الذي فقد ذاته ، وهو يحاول تحقيقها واثباتها ما استطاع الىذلك سبيلا . والشاعر هنا في صراع مستمر مع الواقع . وهو يصر في عزم ـ رغم الهزائم المتكررة ـ على ان يفرض نفسه واخيلته على عامة الناسبغية السمو بهم . يقول الشاعر في اهداء الكتاب :

وهمست عيناك ، غن لهم فهم مغتربون منهكون ، وانا في ظلالك استريح
ولحنـا لم تطلبي لك ، فقط ان استمر فـي غنائك للمغتربـين ،
فانحدرت مني دمعتان واندفعت اغني فـي حماس للعابرين .

في القسم الاول من الكتاب يخطر الشاعر بين عامة الناس وجـلا مستحييا يترقب ، وقد التفت احساساته حول نفسه وتركزت فيها ، وتجربته العاطفية تنتهي الى هذه النتيجة :

حبنا لا يعرف الشواطىء ، لا ولا يدري الحدود
فحبنا ذواتنا هو حب الوجود ، وحبنا الوجود هو حب الذوات .

فالتجربة العاطفية هنا تبدأ وتنتهي بالذات ، وكأن العالم من حول الشاعر مرآة تنعكس فيها نفسه . فهو يدرك تماما أن خياله يهيىء له العالم بالصورة التي يبغيها هو ، يدرك مثلا ان ناعسة تخطر في مشيتها ، وتزين جرتها ، وتنتشر على وجهها حمرة خفيفة عذبة ، لا لانها تحبه ، بل لانه يحبهـا .

اما مشكلة الشاعر الرئيسية في هذا القسم من الكتاب فتنحصر في موقفه من المجتمع ، فالشاعر هنا لا يعاني فصاما ذاتيا ، ولا بلبلة تؤدي به الى التردد ، وانما هو واثق من نفسه تمام الثقة . بيد انه لا يستطيع ـ مع ذلك ، ومع عزمه الوطيد ـ ان يصل ما بينه وما بين المجتمع مـــن حوله . ولهذه الازمة شقان : شق يتعلق بتجربته الشخصية في الحب ، وشق اخر يتناول علاقات الشاعر الاجتماعية بصفة عامة .

اما عن الشق الاول فهناك القصيدة الثالثة من هذا القســـم . الشاعر يخاطب نفسه ، انه يريد الوصول الى حبيبته سيدة القصر ،وهي صعبة المنال . وهو يدفع عن نفسه اليأس في اصرار . اذا كان الليـــل قد اقبل ، فلا بأس منان يتسلق الشجرة المجاورة لغرفتها علها تـراه ، فان لم تره فهناك الناي يستطيع ان ينفخ فيه علها ترق لانغامه . ورغـم اصرار الشاعر فان تجربته تنتهي بالاخفاق والتجمد ، فلا يتم الوصال :

انها ستسمعك في هذا الصمت عندما تذوب اغنيتك في حلممن احلامها الذهبية .
والا فان الفجر سينتفض في الندى،وخفقاتك تجمدت لانها لم تدفأ بخفقاتها بعد يا صديقي .

اما عن الشق الثاني الذي يتعلق بموقف الشاعر من المجتمع بصفة عامة ، فاننا نجد ايضاحا لهذا الموقف في القصيد ةالسادسة . نفهم من هذه القصيدة ان لشخصية الشاعر جانبين ، جانب يظهر للناس حـــين يضطرب معهم في حياتهم اليومية ، وجانب لا يظهر الا حين يغني الشاعر في خلوته ، فلا يطلع عليه الا القلائل الساهرون الذين يصل الغناء الى اسماعهم . والشاعر هنا لا يهمه ان عامة الناس منصرفون عن غنائه او النوم ، فهو لم يقصد بهذا الغناء المنفرد الا الاشباع الذاتي ، والا الذين يبذلون الجهد من أجل تذوق الغناء .

وانا ايضا اعلم ، اعلم انني لا اغني للناس الا اردأ الحاني ،
فاذا عدت في الليل وحدي جلست امـام صديقتي اغنـي افراحي واحزاني ،
واعلم ان هؤلاء الذين يسهرون سيسمعون مني اروع الالحان حتى ترسل الشمس اول ابتساماتها .

***

في القسم الثاني من الكتاب ـ وهو يتكـون من اثنتي عشـــرة قصيدة ـ ننتقل الى مرحلة اخرى من مراحل تجربة الشاعر . فاذا كنا قد وجدناه في القسم الاول ماضيا في طريقه غير عابىء بالصدع القائم بينه وبين المجتمع من حوله ، نجد محور شعره في المرحلة الثانية هو تلك الصدمة التي يحسها بعد ان رفضه المجتمع . ويرمز الشاعر لهذا الرفض بانقطاع الوصال بينه وبين حبيبته . وهو يحس نتيجة لهـــذه القطيعة ان حياته اصبحت « عدوا مستديما وراء شمس غاسقة » . ولكنه يحس ان حرقة القطيعة في ذاتها هي مصدر الوحي والالهام :

فاذا حننت ذات يوم الى مخدعك الذي طردتني منه ،
لا تحسبيني سأعود لأعب من عينيك ، فقد ذبلتا ،
وسترين ملامحي تغيرت كثيرا ، والبياض في شعر رأســـي كسحابة الصيف ،
وقد علمت ان تشردي الذي امضيته مع الغسق يحبسني دائما،

سأحاول ان اجفف جبهتي ، وامسح الدموع ،
ثم اعطيك بعضا مما قطفت ورأيت وانشدت ،
فاذا لم تعرفيني سأعود حاملا ما رفضت لاحبس على منحنى الطريق ،
مغنيا للمارة الغرباء انشودة الفسق البهيج .

وفي القصيدة السابعة من هذا القسم نجد تعبيرا واضحا عن اتجاه الشاعر الى « اعلاء شعوره بالرفض والتنفيس عنه في الشعر الذي ينشره على الملأ من الناس ، فهو قد اشترى بكل ثروته عقدا يتلألأ كي يهديه اليها ، ولكنها ترفضه . عندئذ يقرر الانتقام ،فيتسلل ذات ليلة الى مقعدها ، ويقبلها هامسا « احبك » ، ثم يختلس كنوزها :

ونظمتها مع لآلىء عقدي بقية الليل في خيط لونه قان ،
وفي الصباح بعثرت ما نظمته على فقراء مدينتها،فاتممت انتقامي.

***

فاذا انتقلنا الى القسم الثالث من الكتاب وجدناه اكثر موضوعية لدخول العنصر القصصي فيه . في هذا القسم يحاول الشاعر ان يفلسف رفض الناس له ، وان يتقبله . في القصيدة السابعة من هذا القسم نلتقي بمثال نصب احد اعماله قريبا من اكبر الجسور ، واختفى وراء بضع اشجار ليلحظ اعجاب المارة بتمثاله . ولكن المارة على تباينهم لا يبالون ويمضون عبر الجسر . وكلما مرة يساور الفنان الغضب ، فيهم بالعودة بعد انتزاع التمثال ، ولكن تعزيه ابتسامة يقرؤها على شفتيه ، وحين يزحف الظلام يهم الفنان بتحطيم التمثال ، ولكنه ينتهي اخيرا بالانضمام الى الجمهور الذي لا يبالي ويمضي في طريقه :

لكن التمثال لم يكن قد نام ولا ارتعش ورأى الفنان الابتسامة الفتية قد اشرقت في خلودها . فقبله وهو يبكي ، ثم تركه عريان في مكانه مع صمته الباسم. اما هو فقد عبر الجسر ايضا.

وتصل تجربة الشاعر الى مرحلة التصوف في القسم الرابع من الكتاب ، ويصل هذا التصوف في بعض الاحيان الى نحو من الفناء في الاله :

انت تعلم اننا فانون ، فهب لي ان احبك حتى يحويني الخلود
وانت تعلم اننا ناقصون ، فهب لي ان احبك حتى يحويني الكمال.

***

اما القسمان الخامس والسادس فيعبر الشاعر فيهما عن غروب التجربة . وهو يرمز لهذا الغروب في القصيدة الاولى من القسم الخامس باختفاء الشمس واقبال الظلمة :

وعندما انطفأ كل شيء ، علمت ان غروبها قد بلغ اوج روعته ،
وان عمري في الظلام لا يمكن ان يكون مقياسه حياة النور والنهار بعد الان

وهذا الغروب هو ما يسميه الشاعر « التقاء اللانهاية بالعدم » ، لانه لا يعني انتهاء أو تغيرا ، فما التغيرات في حياة الواحد منا الا امتدادات لخطواته الاولى ، فقط نحب ان نخدع انفسنا بوهم البدء من جديد حتى نستطيع ان نواصل تحركنا بلا انقطاع » . ومن ثم فان الشاعر يحاول في القصيدة الثامنة من القسم الخامس ان يقفز القهقرى الى الليل من وطن الشروق ، وهو ينشد من رحلته الخلفية هذه ان يستعيد ذكرياته مع الحبيبة ، ولكنه لا يستطيع ان يثنيها في خضم الاشباح الذي يتراءى له ، فبدا له ان من الافضل ان يفترض وجودها في هذا الجمع الهائل غير المستبين .

... حيث ينبثق الوجود من بين عدم وعدم ... فاندفعت
اريد اقتحام الموكب ، حين ادركت انني احيا في الوهم ، وانني وحيد ،
والليل حولي ، وقد ضاع مني الاحساس بالاتجاه ...
فانطلقت اسير ، بلا قامة ولا عمر ، كي اواجه الليل اينما اتجهت .

***

ويحمل القسم السابع من الكتاب عنوان « لحن جنائزي » ،والشاعر يشير بذلك الى انقضاء التجربة وفراغه منها . ففي هذه المرحلة الاخيرة اذن يستطيع الشاعر ان يقف موقف الفيلسوف ذي الخبرة فيتحدث عما وراء التجربة . ففي القصيدة الاولى من هذا القسم يتحدث عن مشكلة « الخلق » في كلمات تذكرنا بقصيدة ت. س. اليوت « الرجال الجوف » :

بين الرغبة والتحقق يسقط الواقع ، وبين الرغبة والمعرفة يقوم الخلق.
الخلق ـ كالحب ـ هو القمة التي عندها تتعانق الحرية المطلقة والضرورة المطلقة .

قارن ذلك بقول اليوت في القصيدة المذكورة :

بين الفكرة والحقيقة يسقط الظل ، بين الحركة والفعل يسقط الظل
لك الملك يا رب .

بين الالهام والخلق يسقط الظل ، بين الاخصاب والانجاب يسقط الظل،
بين الاصل والفرع يسقط الظل ، لك الملك يا رب .. الخ.

وكلا الشاعرين هنا يتناول فكرة الخلق ، ويفرق بين لحظة الالهام او الاخصاب ، ولحظة الابداع او الانجاب . وكما ان اليوت يتناول في قصيدته الجفاف والخواء الذي يصيب العالم ، فان الشاعر هنا يتطور من مناقشة فكرة الخلق الى مناقشة فكرة الالم الذي يصحبه ، ويكرس الجزء الاكبر من هذا القسم لاستكناه حقيقة هذا الالم ،وكيفية الخلاص. وينتهي من هذه المناقشة بهذه النتيجة :

الالم نوعان . الم نعانيه من اجل الفقد ، يستمد وجوده من الماضي ، ويكاد يكون دفاعا آليا عن النفس ، مهما بلغ من الخصوبة والعنف فهو شكوى وتبرير واتهام ، والم نعانيه من اجل الحصول ، يستمد وجوده دائما من اللحظة المقبلة ، وهذا الالم بذل ارادي من النفس ، فهو جهد ولباقة وخلق .

ويفسر الشاعر هذا الالم في المذكرات اليومية الملحقة بالكتاب، يفسره بانه ناجم عن الازدواج الوجودي الذي نعيش فيه ، فنحن متصلون روحيا بالمجهول ، ولكن لنا وجودا واقعيا لا يعرف الا الحسم والبتر . ونحن نتعذب في هذه الارجوحة الجهنمية ما بين اتصال في الروح لا يزال ، وانفصال في الواقع بتار » ، من هنا تنبع آلامنا .

اما اليوميات في نهاية الكتاب ، فالجزء الاول منها استمرار في مناقشة عملية الابداع الفني باعتبار انها ضرورة تلقائية لدى الفنان . « ففي التعبير نحن نلخص كل فصول التجربة التي تلقيناها ، وفي التعبير نقوم بمحاولة ايجابية ضخمة ، ذلك اننا نحمل الاخرين على ان يعيشوا تجاربهم ايضا » . ولكن كي يتم التعبير ينبغي ان تكون التجربة قد اتضحت في نفس الشاعر اولا . والمسألة ليست بالسهولة واليسر كما قد تتصور لاول وهلة . لان عملية استبطان التجربة وادراكها عملية شاقة عسيرة ـــ

ان حياتي كانت حتى الان ، وستكون حتى موتي ، محاولة طويلة قاسية لتوضيحها . وانني لاحس الليلة انه ينبغي ان ابذل جهدا اكثر حتى تتضح لي نفس اكثر وان يتكشف هذا العالم من حولي . انني احصل على كل حقيقة شعورية بعد معاناة ألم هائل ، وان اول خطوة اخطوها في صرامة وقوة نحو توضيح ذاتي ، هو انني يجب ان احمل النير ، وان اتألم . تلك هي القولة الاولى ...

**

كتاب « المساء الاخير » ليوسف الشاروني كتاب فريد اذن ، لانه ليس من نوع الادب الذي تعوده القارىء العربي والذي يقاس نجاحه بمقدار ما فيه من واقعية . ينتمي هذا الكتاب الى نوع من الادب العقلي الرفيع الذي يتطلب من القارىء جهدا في الفهم مع التركيز والانتباه . ومن هنا كانت الاهمية الاولى لهذا الكتاب ، اذ هو محاولة جريئة لانتشال الادب الحديث من براثن الكسل الفكري الذي خيم عليه تارة تحت اسم الواقعية ، وتارة اخرى تحت اسم اللامعقول . والكتاب مهم ايضا كوثيقة ندرس فيها مرحلة من مراحل النضج الفكري ليوسف الشاروني ، والدوامات النفسية والفلسفية التي اعترضته في فترة التكوين .

الدكتور عادل سلامه
مدرس الادب الانجليزي
كلية البنات ـ جامعة عين شمس

تاريخ المغرب الكبير

تأليف الاستاذ محمد علي دبوز

مكتبة النهضة بالجزائر ـ ٦٥٦ صفحة من القطع الكبير

***

وقع في يدي الجزء الثالث من كتاب « تاريخ المغرب الكبير » لمؤلفه الاستاذ محمد علي دبوز ، المحاضر بمعهد الحياة بالقرارة في الجزائر ، وقد اقتنيت الكتاب ، اولا لعنوانه ، فان فكرة المغرب الكبير موضوع جدير بالعناية والبحث والدراسة ، وثانيا لمعرفتي للمؤلف ، واساليبه في البحث ، وتعمقه في الدراسة ، واعتماده على التحليل النفسي للمجتمعات في اصدار الاحكام . ولما تصفحت الكتاب وجدته يتحدث في اوله عن العهد العباسي في المغرب ، وعن ثورات المغرب المتمسك بالامامة الاسلامية على العباسيين الذين يؤثرون الكسروية واستبدادها ، وعن اسباب تلك الثورات ، بأسلوب ادبي وبحث فلسفي ، معللا كل الاحداث ، وهو ما لا تجده في كتاب اخر غيره ، وتحدث الاستاذ بعد ذلك في كتابه حديثا شافيا عن دولة ابي الخطاب عبد الاعلى بن السمح رحمه الله ، وهي اول دولة اسلامية مستقلة نشأت في المغرب الادنى ، كما تحدث في جل كتابه عن احدى الدول الاسلامية الكبرى التي قامت في المغرب الاوسط ، وامتد نفوذها الى المغرب الادنى زمنا غير قصير . وفي الحين الذي يمر اكثر المؤرخين من القدماء والمحدثين على هذه الدولة فلا يقفون عندها ، او يقفون وقفة يسيرة لا تتيح للمطالع فكرة واضحة عنها ، او يتجنى عليها بعضهم تجني المغيظ المحنق ، اقول في الحين الذي يقف فيه كثير من المؤرخين من هذه الدولة بعض هذه المواقف ، يقوم الاستاذ محمد علي دبوز فيخصها بجزء ضخم من كتابه الكبير فيكتب عنها ما لا يقل عن خمسمائة صفحة من الحجم الكبير .

ان هذه الظاهرة ان دلت على شيء فانما تدل على ان تفكير المؤرخين في العالم الاسلامي بدأ يتجه اتجاها صحيحا بعيدا عن المؤثرات التي كانت تسوق الكتاب في ركاب احضان السلطان .

انه لحق للامة الاسلامية على مؤرخيها ان يعيدوا النظر في تاريخ الطوائف الاسلامية المختلفة ، وان يراجعوا سير دولها المتعددة ، وان يحتكموا في كل ذلك الى الحق والواقع ، وان ينقدوا بوعي ما دسته السياسة الماكرة ،وادخلته الاقلام المغرضة في تاريخ الامة الاسلامية العظيمة في شتى طوائفها واقطارها ...

قرأت هذا الجزء كما قرأت الجزء السابق من الكتاب ، واعجبت به ، واستمتعت بقراءته ، على ان اعجابي بالكتاب لا يرجع الى اسلوب المؤلف الادبي الجميل ، ولا الى الروح الخفيفة المتوثبة ،ولا الى التعابير الراقصة في بعض الاحايين ، ولا الى تنسيق الاحداث التاريخية هذا التنسيق الفني البارع فحسب ، وانما اعجبني في هذا الجزء وعي المؤلف الصادق لمباحث الكتاب ، وادراكه العميق لاسرار الاحداث ، وفهمه الصحيح لحقائق التاريخ ، واستيعابه لجميع الوقائع في مختلف ازمنتها وامكنتها ، ثم عدم الانخداع بمظاهر يضفي بها المتزلفون « الشرعية » على دولة فيغتفرون لها جميع الاخطاء ، ويضعون جميع الحقوق ، في يدها الباطشة المتجبرة ، وينزعون بتلك المظاهر صفة « الشرعية » عن دولة اخرى فيضعونها موضع الثائر على الحق ، المتجني على العدل ، الخارج على القانون ، فيسلبونها جميع الفضائل ، ويجردونها من كل الحقوق !!

وقف الاستاذ محمد علي بين هؤلاء المتزلفين لا تغره المظاهر ، ولا تخدعه الانساب ، ولا يهتم لصفة « الشرعية » التي يلبسها في بعض الاحيان جبابرة يتسلطون بها على الامة ، وما فيها من امكانيات ، وتخلع في بعض الاحيان على دمى وتماثيل يحركها حواة من وراء الستار ، وقف بين اولئك المؤرخين يستعرض احداث الماضي ، ويقيس اعمال الدول التي ارخ لها الدستور الخالد الذي جاء به الاسلام ، فما سار على نهجه فهو الحق ، والدولة فيه محقة ، وما خالفه فهو الباطل والدولة فيه مبطلة .

ان هذا النقد الواعي لاخبار المؤرخين ، والدراسة العميقة لسير الاحداث ، والفهم الصحيح للعلل والاسباب التي ينبعث منها القول والعمل هو ما يطلب من المؤرخ النزيه في هذا العصر .

ولقد استطاع المؤلف ان يكشف عن جوانب كثيرة ، انحرف فيها المؤرخون السابقون وتبعهم في ذلك الانحراف مؤرخون معاصرون ، فابان وجه الحق ، وبرهن على صحة النظرة وسلامة الفكرة ، وعدالة الاتجاه . وكان اعتماده في ذلك على الفهم والادراك والنقد ، وعلى دراسة المجتمعات في تلك العصور ، وعلى فهم نفسيات الشعوب ، ونفسيات الدول في ذلك الحين . ولعل الاعتماد على التغلغل في نفسيات الشعوب والدول هي احدى خصائص الاستاذ محمد علي في كتاباته للتاريخ . ولو رجع القارىء الكريم الى الجزء الثاني او الثالث من « تاريخ المغرب الكبير » لوجد كثيرا من الشواهد على هذا القول ، وانا استطيع ان اضع بين يدي القارىء الكريم عشرات الامثلة ، فانك لا تقرأ أي فصل من فصول الكتاب الا وتجد فيه هذا التحليل والتعليل والدراسة النفسية . ومن امتع ما ورد في هذا الجزء ما كتبه عن هناء الدولة الرستمية واستقرارها من صفحة ٤١٨ الى صفحة ٤٣٥ فقد عقد مقارنة بارعة بين الدولة الرستمية والدولة الاغلبية تتلخص فيما يلي :

لقد كانت الدولتان متعاصرتين ، وكانت الدولة الاغلبية تحظى برضاء العباسيين وتأييدهم ، بينما كانت الدولة الرستمية تتعرض لسخطهم ومكائدهم ،ومع ذلك فقد عاشت الدولة الرستمية قرابةقرن ونصف،ولم تعش الدولة الاغلبية الا قرنا وبعض سنوات.ثم ان الدولة الرستمية في حياتها الطويلة لم تواجه غير سبع ثورات ترجع اسباب ست منها الى مكائد العباسيين ، ولم تتجاوز العاصمة . اما الدولة الاغلبية فقد واجهت قرابة عشرين ثورة ، ونتجت كلها عن سخط الشعب وتذمره من فساد الحكام . وتولى الحكم في الدولة الرستمية ، ستة ائمة كان متوسط حكم كل امام منهم ربع قرن وامتدت به الامامة حتى استوفى اجله ، بينما تتابع على حكم الدولة الاغلبية احد عشر ملكا كان متوسط حكم كل ملك منهم عشر سنوات ولقد قتل اغلب هؤلاء الملوك او عزلوا بسبب الثورات الكثيرة التي لم تهدأ في يوم من الايام .

وقد رأى المؤلف بناء على هذه المقارنة ان عهد الدولة الرستمية كان عهد استقرار وهناء واطمئنان ، بينما كان عهد الدولة الاغلبية عهد قلقلة واضطراب . ان هذه النتيجة التي توصل اليها المؤلف على ضوء دراسته للمجتمعات ، ونفسية الدول ، تخالف اقوال كثير من المؤرخين المتزلفين او المغرضين ، بل أن هذا التحليل ـ وتجد الكثير منه في الكتاب ـ كثيرا ما يكشف النقاب عن حقائق انطمست بين كيد السياسة وتغرير التزلف وسذاجة النقل ، والثقة فيما تركه الاقدمون .

ان المؤلف حين كتب عن الدولة الرستمية انما كتب بروح المؤرخ العارف النزيه الذي ينقد نقد الصيرفي الخبير ، فحيثما يجد الذهب يبرز خصائص الذهب الممتازة ، ويتغنى بها ، ويطيل في وصفها ،وحين يجد الصدأ ، يبرز ايضا قبح الصدأ ويظهر ما فيه من خبث ، ويطيل في وصف ذلك . انه عندما يجد الجمال يقول بقوة وحرارة هذا حسن جميل، وعندما يجد القبح ، يقول بنفس القوة وبنفس الحرارة هذا قبيح ، ولكنه في كل ذلك لا يسير وراء المؤرخين القدامى او المحدثين ينقل عنهم الاقوال، ويقلدهم في الاراء ، انه يدرس ما قالوه وما ارتأوه ليعرف ما قيل ، ولكنه لا يسجل التاريخ الا بحاسته الخاصة وبتحليله الشخصي،وباستنتاجه المبني على ملاحظات الجوانب النفسية اكثر من الجوانب القولية ، اقرأ ان شئت معي في صفحة ٥٦٦ من الكتاب تعليله لضعف الامام ابي بكر بن افلح رابع الائمة للدولة الرستمية ، وكان الحلقة الهزيلة في سلسلة ائمة الدولة الاقوياء : « ان لضعف ابي بكر ثلاثة اسباب : اولها الوراثة بالتحيز من امه ، فاختفت فيه صفات ابيه . ان المؤرخين لم يذكروا عن امه شيئا ، واراها لتحضر الامام افلح وذوقه الشعري ، وغرامه بالجمال ، جميلة من الجميلات اللائي يقتنين كزهور الفل والياسمين لجمالهن ، والتمتع بحسنهن الخلاب ، فهن كزهر الياسمين لا يثمرن بالاعمال ، ولا يعمرن البيوت ، انهن كعصافير الزينة ، تزقزق وتؤنس الدار ، وتروق

بجمالها ، والناس هم الذين يخدمونها ، ويقدمونها ، ويقدمون اليها كل حاجاتها ، ارى ان ام ابي بكر من هذا النوع الذي يتخذ كنمرقة الحرير المزخرفة الناعمة ، لا تصلح الا للاتكاء ... »

فجاءت لنا بأبي بكر ، فورث كل صفاتها ، ودللته لضعفها فنشأ ضعيفا مدللا ، وتأثر ببيئتها الحريرية الناعمة ايضا فأورثته ضعفه وقوت الوهن في نفسه .

والسبب الثاني في ضعف ابي بكر هو استقرار عهد ابيه ...

والسبب الثالث هو غنى الدولة الرستمية ...

ان المؤلف وهو يحلل اسباب ضعف ابي بكر يجعل اول الاسباب واهمها في نظره الوراثة عن الام . فكيف عرف الام والمؤرخون لم يذكروها بشيء ؟

رجع المؤلف الى طريقة التحليل والاستنتاج . فهو يعرف ان اسلاف ابي بكر من القوة بحيث لا يمكن ان يرث منهم اولادهم صفة من صفات الضعف . ثم ان الامام افلح ! هذا الرجل القوي الشخصية ، الفياض ، المشاعر ، الذواق للجمال ، المطمئن المستقر الهادىء في حياته ، لا بد ان يختار زوجة جميلة لطيفة يسبغ عليها المحبة والرضاء ، ويضع بين يديها من الخدم من يوفر لها كل اسباب الراحة حتى تتفرغ لنفسها ولجمالها ، وامرأة من هذا النوع لا تعمر البيوت ، ولا تبنى الرجال الاقوياء . لقد اقام المؤلف هيكل هذه المرأة التي لم يتحدث عنها المؤرخون بشيء بناء على الاستنتاج حتى استوت فتاة جميلة رقيقة كسولا فيها جمال الزهرة ، وعطرها،وفيها لينها وطراوتها ،ثم هاجمها بعنف وقوة كأنما يحاسبها على تدليلها لابي بكر وافسادها لطبعه وخلقه بما اورثته من الرخاوة والفسولة.

هذا الاستنتاج سواء كان هو نفس الواقع او قريبا من الواقع يدل على ان صاحب الكتاب بعد الدراسة والبحث والاطلاع والتغلغل الى دخائل الحياة في تلك المجتمعات انما يعتمد على اكتشافه الشخصي، وعلى ذلك الاكتشاف يبني احكامه وهو في كل ذلك يقوم على التحليل والتعليل. والكتاب كله مظهر لهذا الاسلوب في كتابة التاريخ واحسب ان هذه احدى المزايا التي ترفع المؤلف الى الصف الاول من المؤرخين الذين يعملون دون تأثر باتجاه معين ، واننا لننتظر من الجزائر الفتية ، ومن كتابها النابغين مثل الاستاذ محمد علي دبوز ان يمدوا المكتبة العربية لا سيما في تاريخ المغرب وتراثه بما يسد ثغورا كبيرة لا زالت فاغرةفيها.

نالوت (ليبيا) علي يحيي امعمر

انفاس السحر

شعر الدكتورة عائكة الخزرجي

نشر مؤسسة فن الطباعة ـ القاهرة ـ ١٤٤ ص

ـ ١ ـ

انا اومن بأن النقد والادب متلازمان ومتكاملان ايضا .. فليجل ادباؤنا صدأ الجاهلية عن نفوسهم ولينفض نقادنا غبار الكسل عن اقلامهم وليبعدوا ثقل التزلف والمجاملة عن احاديثهم ان تحدثوا ومقالاتهم ان كتبوا .. وليعتقد الاديب ان لا فائدة له من تزلف او مجاملة فلان وليعلم الناقد ان لا فائدة من جهده ان لم يجعل رضا الادب والفن وجهته لا رضا الاديب او الفنان ..

لقد عرفنا فلانا قد حابى فلانا وجامله فألف عنه كتابا يثني فيه على شعره ويغدق عليه النعوت والالقاب اغداقا .. ولو تأمل هذا الكويتب قليلا لرثى لنفسه ولسخط عليها في آن .. كيف لا وهو قد اهانها بهذا العمل اللاادبي ولو صدقها لقال ما يعتقد لا ما يملي عليه او تمليه مصلحة هي بعيدة كل البعد عن الادب والفن ..

ما لي اغرب في اللغز واسرف في الكناية ؟ هذا مثال اقرب الينا ؛ هذا « انفاس السحر » ديوان الدكتورة عائكة الخزرجي قد صدر اخيرا فلم يكتب عنه الا المحاباة والمجاملة وانا لم اسمع ا ولم اقرأ عنه نقدا يسوى المعنى كما يقال .. الا ما سمعته من هذا او ذاك من عبارات لا تكون رأيا ولا توفي غرضا ..

والحق ان استاذتنا الدكتورة تستحق التقدير والثناء لو كانت المسألة متعلقة بين تلميذ واستاذه .. اما وديوانها امامي والادب يستحثني على ان اعلن رأيي فيه فأشير الى ما وجدته سمينا وابين ما فيه من سمات واتكلم عما وجدته غثا بحيث اظهر سماته ايضا وهذا يقتضيني ان اتناسى كل اعتبار غير اعتبار الادب ...

واول ما اعلن عن الانفاس كما يحلو لصاحبته ان تسميه انه ديوان احتوى على الوان من العواطف وفنون من الاغراض كان بعضها جيدا وجلها بين المتوسط ودونه .. وبتعبير اوضح انها قد اجادت فيه حينا ولم يحالفها الحظ في الاجادة احيانا .. هذا رأي عام سأتوسع فيه خلال مقالي .

ـ ٢ ـ

قبل ان استعرض « الانفاس » احببت ان اقول كلمة في مقدمته التي كتبها اديب معروف هو عزيز اباظه ، لقد اراد اباظه ان يتخفى وراء ستر مطرز بالثناء والاطراء متخذا من الاحكام العامة التي لا تعطي رأيا واضحا اسلوبا اراد به ان لا يرد القاصد خائبا من الثناء على الاقل .. غير انه لم يتمكن من ان يخفي كل شيء . اسمعه يقول : « والحقيقة التي لا يرقى اليها شك هيان الشعر ليس من الفنون التي تحسنها النساء احسانا بعيد الامداء .. » وهكذا ظل صوتا مخنوقا حتى نهاية المقدمة ..

والغريب اني وجدت اباظة يغلط في النحو وهو فيما يظهر ملتزم فيه حريص على العربية لا كغيره ممن يتهاون بها ، لاحظت ذلك في قوله (ص و) : « واما ثاني الداعيين فرغبة تملكتني ان انظر في سائر قصائدها ومقطوعاتها لاتبين اي سليقة سليقتها ولأتعرف اي منزلة من منازل الشعراء .. » فقد نصب (أي) في مكانين والصحيح الرفع فـ (أي) هنا مبتدأ وما بعدها خبر والجملة في محل نصب مفعول به ولياجع موضوع التعليق في النحو من شاء التأكد .

ولانته من مقدمة اباظة لان قصدي نقد « انفاس السحر » لا اباظة.

الديوان مهرجان تراءى لي فيه ثلاثة الوان واضحة بينة تناثرت بينها الوان شاحبة لا توضح اتجاها ولا ترسم غرضا ولكن اوضح ما تميز

هذا الشهر

كامو والتمرد

بقلم
روبير دولوبيه

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

طبعة جديدة من كتاب يدرس فلسفة العبث والتمرد عند احد كبار مفكري هذا العصر

منشورات دار الآداب

فيه هذه الالوان الثلاثة ..

اولها والذي كان فيه شعر الشاعرة هو الشعر العاطفي والذاتي الذي تحس من قراءة بعضه نغمة التمرد وتذوق مرارة الحرمان والالم والشكوى ويدخل فيه ما كان على اسلوب المسرحية والتي جعلتها الشاعرة من (مسرحية علية بنت المهدي) .. وهذه القصائد والمقاطع التي كانت تحت عناوين اخرى مثل « شهرزاد » و « كن من تشاء » و « اني احبك سيدي » و « ماذا عليك » و « يوم الرحيل » و « سراب » .. هذه كلها تعبر عن عواطف ذاتية عانتها الشاعرة فجاءت ثائرة مرة وهادئة مرة اخرى راضية حينا وساخطة حينا اخر ..

ولدي ملاحظة في قسم من غزل الخزرجي هي اني المح تأثير الشعر العربي واضحا على شعرها خصوصا الغزل منه فتحس احيانا هذا التقليد اللاشعوري فيه والا فبماذا نعلل قولها في « صلوات » (١)

يا هاجري فديتكم لا تظلموا ... هذا الفقير اتاكم مسترحما

الى قولها :

كم هاج بي الشوق الملح فجئتكم ... بعد الرقاد اطوف من حول الحمى
ولكم حباني من رؤاكم ماحبا ... فلبثت ارتقب الظلام لاحلما

البيت الاخير جيد يعبر عن حالة نفسية يجدها العاشق المغرم . اما ما سبقه ففيه ما لا يسوغ ان يقال في بيئة عاشت فيها الشاعرة ان صدق ظني ومثل هذا نجد في قصيدة « غيران » .

والصراع النفسي لا يفارق الشاعرة فانت تتلمسه على صورتين : احداهما صراع يدور داخل هذه الذات المتكورة المتضخمة بالالم والشكوى من الحياة ومن الاجواء النفسية التي تحيط بها .. وهذا افق من افاق الشعر بل هو الشعر .. تجد الشاعرة تحلم ثم تأسف على حلمها الضائع ثم تؤنب قلبها وتعده مجرما لما يشوبه من حب لا يلائمها وبما يوافق على ما لا رغبة فيه حتى انها تفرغ حقدها على نفسها فتقول في « كان حلما يا ترى ذلك » (٢) .

ما الذي تبغيه يا قلبي من هذا التجني ؟
انا لا أعلم هل تأتيه كي تقتص مني ؟
مجرم أنت ولكن في ثياب الابرياء .. !
فلذا تخفق من خوف ويأس وعناء ..

ويبقى هذا الصراع كامنا متسترا يظهر بين الحين والحين .. نراه مرة اخرى في « هوى الوطن (٣) حتى انها تصبو الى ان تطير الى الغرب ابتعادا عن الشرق !

وليت جناحا لي فاهجر بقعة ... فشا اللؤم فيها في الاقارب والصحب
اخوض عباب الجو تحدوبي الصبا ... فأهجر هذا الشرق كرها الى الغرب

ثم ترجع الى نفسها :

وكيف بقلب قد تملكه الهوى ... فأضحى وما يصغي للوم ولا عتب..
هوى وطن لم يرع حق محبه ... وجازاه هجرانا على الود والحب
هوى بقع فيها رفات احبتي ... وفيها احب الذكريات الى قلبي

✱✱

هذه صورة ، اما الصورة الاخرى ففيها تتمرد الذات فتنتقل ساحة الصراع الى الدنيا وتكون الذات طرفا فيه .. وكامرأة عاشت تبغي تحقيق امالها وامانيها قد صدمتها الايام صدمات لم تطقها نفسها المرهفة ولم يحتملها قلبها الرقيق ثارت وسخطت ولكنها لم يكن سخطها كسخط زميلتها نازك الملائكة التي تقول :

لا اريد العيش في وادي العبيد ... بين اموات وان لم يدفنوا
آدميون ولكن كالقرود ... وضباع شرسة لا تؤمن

✱✱

وهذا السخط طبيعي من المرأة الهادفة في الشرق وفي العصر الحاضر غير ان شاعرتنا عبرت عن سخطها هذا في الغالب باسلوب دون اسلوب نازك لان روحها ثائرة ولكنها مخنوقة بخيوط الابريسم والحرير. اقرأ قصيدة « ثورة النفس » .

ويا خيبتي بالناس حين بلوتهم ... فلله درس ما اشد وما أقسى
توهمت فيهم كل خير وليتني ... جهلت فلم ادرس حقائقهم درسا
فمن طيب امسى الخبيث وطاهر ... بدا بعد طول السير اخبثهم نفسا

وهكذا تستمر القصيدة بهذا الاسلوب المهلهل الغارق ببرودة التفكير وشحوب الروح ..

فالشاعرة في هذا الباب تجوب دنيا الرومانسيين بثوب كلاسيكي.

— ٣ —

واحسبني قد نسيت نفسي فاطلقت اليراع ... لا بأس علينا ان استوفينا توضيح هذا الغرض فهو ما احتواه الديوان من الشعر ..

اما اللونان الاخران فهما الوصف وخصوصا وصف الطبيعة ثم الشعر الاجتماعي والسياسي — وسأذكر شعر الطبيعة فقط لان الشاعرة فاشلة في شعرها السياسي فليس لها الا قصيدتان او ثلاث من الشعر الاجتماعي فقد اجادت في « وارحمتا للخلق » و « صراخ الظلم » و « ذات مال » ..

والطبيعة في الانفاس جميلة مبهجة ففي «تباركت يا نخلة الشاطئين» جمال فني ووصف حسن :

تباركت يا نخلة الشاطئين ... ويا آية الاعصر الخالية
نهلت الخلود من الرافدين ... فبوركت مسقية ساقية
ترفين في افقك الشاعري ... رفيف الزهور على الرابية

وهذه القصيدة جميلة على الرغم من ثقل ترديد (ايا نخلة الشاطئين) مع (تباركت) و (حنانيك) و (سلاما) و (اظلي) .. فهذا الترديد غير جميل وما كل تكرار في الشعر حسن ..

وكذلك في « مواكب الربيع » هذه القصيدة الرتيبة المتسلسلة في وصف جزئيات الطبيعة .

وفي الديوان بعض الهنات العروضية واللغوية مثل قولها في قصيدة (فلسفة الحياة) .

ضللنا عن الحق السوي لنا

ولعله (به لنا) كي يكمل وزن الشطر ..

وفي « بين الامس والغد » قولها : (واراك اليوم يقظى) والخطاب للمذكر والصحيح ان تقول (يقظا) ..

ونكتفي بهذا القدر من استعراض الانفاس.. وانا اذ اهنىء الاستاذة عاتكة الخزرجي في اصدارها الانفاس العطرة اتمنى لها الاجادة والتقدم في ديوان اخر انفاسه اشهى واعطر ..

زهير غازي زاهد

استاذ الادب في اعدادية النجف — العراق

(١) ص ٩٢ (٢) ص ٤٠
(٣) ص ٦٢

فنـدق كلاريدج

شارع سليمان بالقاهرة

موقع ممتاز واسعار معتدلة

بادارة : حلمي المباشر